محمود الخطيب

حكاية « الأزعر الكوكباوي »

(من الاشارة ٤٨ الى الاشارة ٦٥)

دائما .. وعندما ينهمر السؤال من عينيه تتفرش في مخيلته كل السنين المثقلة بالعذاب .. فتتعامل معه الذكريات ، دقيقة وراء دقيقة ، ليسترجع عبرها العمر منذ ان القى اخر نظرة على « كوكب الهوا » ودعس اخر خطوة على ضفة النهر ، حتى هذه اللحظة . وتبقى شفتاه القرمزيتان منطبقتين بالصمت الذي تعود ان يرويه بعلقم العيش ، الى ان تجمد في فمه الاحتجاج . تعود على الاحتضار ، هكذا ، لانه لم يعرف سواه . يغرق الشريد في الضياع ، لا احد له ، لان لا وطن له. ويغيب الفراغ عندما لا تسعفه الاعصاب على التركيز ، فتراوده القناعة: ومن فقد الوطن ، فقد نفسه !..

تعوزه فكرة ثابتة ليلقي بنفسه في احضانها . او امل يولد ولايموت في حينه . او حلم يسطع ، فجاة ، فلا يختفي لانه لا يجد ارضا تحته . او امنية من الامنيات التي تتكاثر وراء حدود دنياه . تعوزه الحياة ليبحث فيها عن رجل دفن حيا .. يزدرد آلامه دون ان يعرف طعم البهجة . قتال يا زمن ! . فمن الذي عرف المرارة مثله !؟ .

في نفسه عزة ولدت اكبر منه ، فجعلت له عشا في احشائها . وعند لحظة الاختلال ، انداست ، حينما ودع الوطن باخر نظرة وغابت « كوكب ..» في المدى .. دفنتها مآسيه خلف هوامش الحقيقة وارقته كثرة الاحساس باوجاعها .. آه .. عندما يقع الفارس في السلاسل يكثر الفرسان فوق راسه !.

ها هو يتعلق بخيمة الخيش ورث الشياب واشتهاء اللقمة ... ولحن الحزن ينهمر من مقلتيه . كتب عليه ان يحوم حول الاخرين .. من ينكر ان له هوامش اكبر من الصفحات بعدما رأى ان ارض العالم صارت ملكه ؟! .

بات النهار يتحسر قبل ان يولد . يفر الجولة اثر الجولة في سراديب الليل حتى تقتحمه الحقيقة . اخيرا ، تسقط اللعنة ،فينحشر في حناجر الزناديق حتى يغيب . كذلك هي امنياته الجامحة باتجاهات عكسية . مختار يا مختار ، ولدت ثم قتلت مع اولى خطوات الهجرة. فاهدر يا نهر السخط . اهدر . في التدفق يولد العطاء . وعندما يحتدم اللهب ، ويسطع الجمر ويتدحرج فوق رؤوس الاصابع ، لا انت ولا الزمن ، تستطيعان ان تبقيا في مواقع الخطوات .

عندما تقتحم اللحظة حياته ينطبع اللمعان في رواق الموت . ينطفىء . يباب في وجهه الارض . والعطر يتبخر عندما يلامس انفه . والاشجار تغرق في جذورها ، تفور من شدة الخجل ، بعيدا عن وجه البشرية . الورد ، تناثر ، وانقرض . لم يعرف لون الورد مرة . ولا طعم الخبز الابيض !. النظرة الى نفسه تقتل والى الاخرين تقتل . واكثر ما يوجعه تلك اللحظات المتمفظة كالمخاط ، كريهة ، دبقة ، فلا هو حي ولا هو ميت . وعندما يفكر بنفسه ، تتدلق اعماقه امام عينيه فتثن جثث الايام ، ويؤرقه صرير الكوابيس الكافرة . وحينما يجول في الاحزان المترامية ، يخر صريعا بين عينيه والافكار .

عذابه يفوق عذاب اي مخلوق . انما من يغرق في لذائذ العمر ، ولديه مال يعميه ، يزعجه ان يفكر باحوال هذا الرجل ولو لبضع ثوان. بل يشاء ، لو تحين الفرص ، ان ينهش البقية الباقية من وجوده الذابل .

صار ابن آدم يفترس نفسه . والارض تتقيا ترابها . ومشاعل الحب مرفوعة بسيوف الفتك . وصار العالم يغترب عن نفسه ،في فوضى الهمجية ، بين خطوة وخطوة ..

ـ وقعت يا ازعر !.

وجاءته الدفعة بين كتفيه فتعثر على عتبة المخفر وسقط . وعندما حاول ان ينهض عاجله الشرطي بكعب البندقية في مؤخرة راسه فتنفجر الدم بغزارة وزاغت الجدران امام عينيه . وبشعور من النشوة ، قال الشرطي وهو يضع الصرة على الطاولة :

ـ حرامي يا شاويش « دحيلان » .

وجلس جانبا . بينما وقف الرجل مضرجا بدمائه ، كئيبا ، ينوء تحت ثقل الهموم . تجشا الشاويش والقى نظرة على الصرة فانمفط شاربه وخداه واسند ظهره باعتزاز الى الكرسي . ابعد كرباجه الى طرف الطاولة وسحب دفترا وقلما ثم انحنى وسأل :

ـ اسمك ؟

ـ ...

ـ اسمك !

ـ مختار الكوكباوي

ـ مولدك ؟

ـ كوكب الهوا ـ ١٩٣٧ .

همهم الشاويش وهو غارق في دفتره :

ـ هويتك ؟

سحب الرجل « هويته » من جيبه ومدها . قرا الشاويش : (المهنة ـ) . تساءل :

ـ عاطل عن العمل ؟!

ـ ...
ـ تكلم !
ـ تقريبا
هز الشاويش راسه :
ـ يعني ، مهندس شوارع !. سكنك ؟

وثب الحزن من قوقعة الصمت . وأسبل الرجل عينيه ليتخلص من شراك المخيلة . تسابق مع الذكريات في شوط مرير فسبقته . ها هي الوقفة التي يتجمد امامها مختار الكوكباوي . وقفة طويلة ، زاخمة، تمتد بين السماء والارض تبتلع الاخضر واليابس . رأى عفيفة والاولاد في مقلتيه . والجوع الذي ينهشهم . والنظرات الحائرة ، الزائغة، الى ما لا نهاية . والامل الذي قد يسقط من المجهول . رأى المخيم، وحياة المذلة ، والصغار الذين يتساقطون تحت وطأة الشقاء . رأى نفسه في موقفه المهين ، والدم المنهمر ، والشرطي الحاقد ،والشاويش المتعجرف الذي ينتظر الجواب ..

قال بسخرية المقهور الذي فقد الصبر :
ـ سكني ؟!
نظر الشاويش نحوه بامتعاض وقسوة :
ـ قلت ، سكنك !
ـ قصر يلدز !
فانتفض الشاويش ، وتراقص شاربه ، وانقض عليه بالكرباج:
ـ تسخر يا ابن القحبة ؟! .. سكنك ؟

بين الرمشة والرمشة يختنق الزمن . ومختار ، الفارق في الهم، يتارجح في دائرة القهر مرة اخرى . ليته ينفجر . يغيب او يتبخر . يا ليت ! . لكن .. بينه وبين الانفجار ميليمتر واحد مصنوع من عفيفة والاولاد . والشاويش دحيلان يقفز فوقه ويجلده بشجاعة لا توصف . اشجع من الزير سالم و « ابو زيد الهلالي » . اما هو فليس غير الكوكباوي ، الفلسطيني ، ابن كوكب الهوا . النوري الاندبوري ابن القحبة !. مط صرخة موجعة في اعماقه : « ويبه !. لولا لباسك الرسمي يا شاويش دحيلان لنتفت شاربك ، شعرة ، شعرة ..»

ـ قصر يلدز .
صرخ الشاويش بالشرطي :
ـ كلبشه !.
وتابع الجلد بعنف :
ـ سكنك ؟
قال الرجل وهو يمد يديه :
ـ نسميه قصر يلدز .. وراء المقبرة تماما .
توقف الشاويش وارخى كلماته باستهزاء :
ـ آه ! . تسمونه قصر يلدز !. هه !. عال ! . رخصت القصور!.
صار المخيم قصر يلدز يا كوكباوي ؟!.
ـ من القهر ، يا شاويش .
ـ من اين سرقت ؟.
ـ لم اسرق .
ـ والصرة ؟.
ـ ملكي .
ـ واين كنت ؟
ـ في الطريق الى بيتي .
ـ اخر الليل ؟!.
تردد الرجل واطلق تنهدة مكبوتة :
ـ اسمع . لم اشتغل من اشهر . عشنا على طحين « الوكالة » والفول « المسوس » وحسنات « الاجاويد » من الجيران . البطون « فولت »، واشتهينا لقمة « اللحم ».قبل اسبوع ، اشتغلت في « محجر » في البراري . هناك ، نمت ، وقمت ، واكلت ، وتراكم الوسخ على بدني . ورأني امرأة واولاد .. ومن لم يذق«شهوة» اللقمة، لا يعرف مقدار الحنين اليها . الليلة ،قبضتاجري فوضعته في الصرة ومشيت عشرين كيلومترا على رجلي لكي لا ادفع للسيارة . تاخرت . صرت اركض حتى اختصر الوقت ، لان الدقيقة تعني اكثر من حجمها. في اول المدينة ، رآني الشرطي وقبض عليّ . هل أكون سرقت ؟!.
كان الشاويش يستمع بلا مبالاة . ولما انتهى تساءل :
ـ اشتغلت ؟!
ـ مثل الحمار . كسرت الصخر وحملت القفف . هلكت !.
ـ كذاب .
وسأل الشرطي :
ـ اين وجدته ؟
ـ يتلصص بين المنازل ، يهرول ، ويعد النقود .
التفت الشاويش الى مختار :
ـ صحيح ؟
ـ نعم ، ولكن بدون تلصص .
ـ من يقبض اجرا يعده مرة واحدة !.
ـ الملهوف لشيء ، يظل يتحسسه دائما .
ـ وهو يهرول ؟!
ـ وهو يموت !
أطلق الشاويش صريرا مخنوقا وحرك راسه كمن يشعر بالخديعة.
خاطب الشرطي :
ـ اجلس خلف الطاولة ، وسجل في المحضر .
فامتثل الشرطي وبعد ان تأهب املى الشاويش :
« ضبط يتلصص بين المنازل وبحوزته صرة نقود . اوقف الفاعل، وحفظت الموجودات لحين البلاغ »
واخذ الورقة عن الطاولة واستدار نحو مختار :
ـ وقّع ؟.
ـ لا اوقع على شيء لم اركبه .
ـ حكاية قديمة ، وغيرك اشطر . سنحقق معك ونجلدك حتى توقّع.
ـ الغريق لا يخاف البلل .
ـ ستندم . ما علق مخلوق بيدي الا استفاثت مواجعه وتساقط جلده . ومن بعدي ، يأتيك الغريف « دهيم » . متخرج من بين يدي. متهور . قصير البال . ولا يعرف الرحمة الا في الاخرة .
خلع سترته وبدأ يشمّر عن ساعديه ...

* * *

في لحظة ، مادت الارض وتلاطمت نبضات الحياة وزلزلت الاشكال .. وانبثق من الحلم ، خيال لعالم اخر فاخذت خيوط العنكبوت تكبّل انفاسه . وبزغ من بين الحدقتين مارد حالك السواد ، هلامي الملامح ، انفلش الى ما لا نهاية . ها هو كيان يختنق ويولد اخر مشحون بحمى مثقلة بمرساة . سقط في قاع بحر من القار فتراكمت فوقه ملايين الاطنان من السواد ، وراحت اشباح مبندقة تسبح في خضم الديجور ، وبقي هو عالقا في الصدمة :
ـ عيب ، ياشاويش دحيلان . تتهمني بالسرقة وتسرق رزق اولادي ؟!
فهقه الشاويش وهو ينطلق الى الشارع :
ـ كيف ، اذن ، ساعيش ؟.

وحده ، الشاويش دحيلان ، يستطيع ان يتجول في مثل هذه الساعة ، دون ان يجرؤ احد على الوقوف في وجهه او التحقيق معه. لو كان مثل غيره ممن لا يملأون الوظيفة بهذه الثياب لاختفى وراء الجدران من اول الليل ولما استطاع ان يطل برأسه الا مع اطلالة الشمس . سمع وقع حذائه الذي يمزق الصمت ، ويدق ليل المدينة ، فشعر بالاعتزاز . حذاء الشاويش ولا كل الاحذية .. فريد ، متلالىء،

له سمات الوجود الحقيقي وفيه « فعل » التغير .. « الشيء » الذي يخلق كل شيء في الفراغ اليتيم .. المصنوع من الذهب الخالص في زمن الجلد .. فصار الخاتم الوحيد الذي يمر به ليحدد ملامح العصر .. وصار الانسان ، بالرغم من سعة حجمه ، يضيع في صغر المسافة بين الحذاء والارض . حذاء الشاويش ، ورد فواحة الشذى، طالعة في الجدب لتزين وجه المدينة .

رفع ذراعه ليفتح ازرار سترته . تحسس صدره لهنيهة والقى الذراع . أصغى الى الخطوات مرة اخرى ، وفكر : « كن شرطيا ، ولاتكن فيلسوفا » . ضحك بصوت مكتوم واضاف : « ببساطة ، يفعل الشرطي كل شيء .. لو فكر الازعر ، لاقتنع بانه لن يكون ارجل من غيره على الاطلاق . وانالرجال في مخافر الشرطة اضعف من النساء عندالمصائب .. خصوصا اذا وقعوا بين يدي الشاويش دحيلان » . رفع قبضته والقى عليها نظرة ، واكمل بفخر : « .. ونحكمكم بالسيف ، وشعارنا السيف ، وليس لمن يعارضنا الا السيف(*).. هاهاها .. دحيلانخيالك يا عفره !» .

وعندما وصل الى البيت ، اخرج المفتاح من جيبه ثم دسه في الباب وتنحنح .

رد صوت من الداخل :

ـ دحيلان ؟.

ـ اي ..

ثم فتح ودخل . قالت « عفره » :

ـ يا هلا ..

وتبسمت ،فمد يده وقرصها تحت ابطها :

ـ تعبان يا « حرمة »! .

ـ سلامتك .. على غير عادة ؟!.

ـ اوف !. « استكانة » شاي ، وساشرح لك كل شيء .

ـ ولو !.

وذهبت . تردد هو في وقفته .. راح يسرح النظر في ارجاءالبيت .. راى « عفره » معطية قفاها والابريق في يدها .. والاولاد غارقين في النوم ولهم هرير كالقطط .. تذكر الكوكباوي ، فجاة ، ولسعات الكرباج ، واستمواته من اجل الصرة ، فانغلش في مخيلته بريق ساطع للحظة واختنق .

جلس وتنهد :

ـ نكد لكم ونتعب ..وفي النهاية ، تديرون لنا ظهوركم يا اولاد ..!

قالت عفره :

ـ تاخرت ؟

تنبه لكلمتها فعاد الى طبيعته :

ـ ساسرد عليك الحكاية .

ـ حكاية من ؟.

ـ الازعر الكوكباوي صاحب الصرة .. سلخت جلده !.

ـ يعطيك العافية ..

ـ الشاي ؟

ـ على النار . ماذا فعل ؟.

ـ كبير نفس ، ولسانه طويل ،وراسه اعند من الصخر . كانه لم يدخل المخافر من قبل .

ـ حرامي ؟

ـ ووقع في اللحظة المناسبة .

ضحكت عفره :

ـ جديد في الصنعة !.

ثم اطفات النار ، وحملت الشاي فوق صينية فضية .ملات قدحين صغيرين حركتهما بالملعقة ووضعت الابريق على الطاولة . جلست واسندت ذقنها على قبضتيها :

ـ الحكاية من اولها ؟

جرع جرعة شحيحة فتصاعد لها صوت . اسبل عينيه ،وفجاةانتشاء:

ـ آه !. « دمعة » من يد لا اعدمها !.

وثنى على كلامه بقرصة ناعمة وتابع :

ـ زين !. اين صرنا ؟. قبل حوالي ساعتين ، كنت جالسا في المخفر واذا بالشرطي يحمل صرة بيده ويدفع رجلا اليّ ..

وقرع الباب فتوقف عن الكلام ، فجاة ، واصغى بحذر . وخلال لحظة صمت ، تبادل مع عفره نظرات سريعة ، فبادرته :

ـ كالعادة . شرطي يحمل اليك مشكلة .

نهض عن كرسيه ومشى بكسل . .وما ان طق القفل باصبعيهوفتح دفة الباب واطل ، حتى اخذه الارتباك فتراجع الى الوراء وقد تملكه الفزع وخارت قواه . حملق بدهشة فلم يصدق عينيه . وقبل ان ينطق بكلمة ما ، زحفت البندقية ، تشق طريقها في الظلام ، حتى اقتربت منحاجبيه :

ـ مساء الخير ياشاويش دحيلان !.

سقط الزمن ، في لحظة منتلك اللحظات التي تتشنج بين الحياة والموت ، عندما تجمد الشاويش فوق ساقين ابتلعهما الفراغ . فصار يهوّم في لهائه ، لاول مرة ، منذ ان لبس البذلة العسكرية وتمنطق بالنطاق اللماع . ها هو يذوق طعم الرعب بعد ان تداعت الكبرياء ، فتنقلب الاية ، وتتناوح في مخيلته مئات القناديل المطفاة التي كانت لهنيهات ، تضيء دنياه . ولم يعد يعي غير النبضات المتراكضة تدق صدره بعصبية :

ـ ا .. ا .. انت ؟!

ـ هس !.

ركضت عفره . ولشدة ارتعابها كادت تصرخ . فاشار اليهما معا، من خلف البندقية :

ـ بهدوء !. بهدوء والا طرزت جبينكما بعشرين رصاصة .

رفع الشاويش كفه وبسطها على فم زوجته . تاتا :

ـ كيف خرجت ؟!

ـ اذا قطعت لسانك لحظة ،وكففت عن النوايا التي قد تساورك، لقلت لك كل شيء .

ـ هـ .. !.. !.

ـ بعد ان خرجت ، وقف الشرطي وطلب مني ان اوقع على المحضر . بالطبع ، رفضت ، لانه محضر ملفق وكاذب . وحسب توصياتك وروتين المخافر ، سحب الكرباج وانهال عليّ ليكمل الشوط الذي بداته انت. مزقني !.لا رحمة ولا شفقة.انظر ؟.انظر اليّ كيف انزف ؟. راسي ؟. وجهي ؟. ذراعاي ؟. طفح الكيل ، ولم اصبر . قفز القهر بين عيني وانهار الكون في وجهي . آه يا عمر الاهانة !. ضربته بجماع قبضتي دفعة واحدة ، فسقط يتخبط على وجهه . تناولت البندقية من مكانها وصوبتها نحوه ثم طلبت منه ان يفك القيد . هرع مثل الفار !. دس المفتاح ، ولكثرة ارتعاشه ، ترك القيد يسقط . عندئذ وقفنا وجها لوجه ، في لحظة مكهربة كهذه ، بعد ان انعكس حظه ، وانعكس حظي. قلت له : الان ، وقد وقعت في موقف يشبه الموقف الذي كنت انا فيه، تستطيع ان تقارن ، ايها الشرطي ، اينا اكثر صلابة .. وان اللباس المنمق الذي ترتديه ، والازرار الملمعة التي ترصعك من فوق الى تحت، لا تكسبك ، بالضرورة ، صفة خاصة . لم يجب . بقي واقفاكالاخرس. حينئذ ، لطمته بكعب البندقية في مؤخرة راسه لكي ارد له الدين بنفس مكياله ، وقيدته وحشرته في « النظارة » ووضعت المفتاح في جيبي ، وجئت اليك ..

(*) من شرائع عبدالعزيز ال سعود في حكم شعب الجزيرة .

بغت الشاويش :

ـ ضربته ؟!

ـ اوف !.. عجيبة ؟!

تردد الشاويش قليلا ، فيما ارتسمت على وجهه تعابيرعاتبة :

ـ لو طال صبرك لتركناك في الفجر .

ـ وتكون قد سطوت على رزقي ونمت مع الزوجة منتفخ المعدة !.

ـ الصرة ولا رقبتك !.

ـ لا . رقبتي ولا الصرة . ففيها رقاب اولادي .

ـ مجنون يا مختار !.

ـ يخيل اليك ان من يضرب شرطيا في هذا الزمن الملعون ، انما يكون بالتاكيد ،قد فقد عقله . لماذا ؟. اتولدون من بطون امهاتكم تحت ضوء القمر وعلى صدوركم ازرار تلمع وفوق رؤوسكم خوازيق ؟!.

ـ ...

ـ تكلم ؟!. ساكت مثل الصنم !. اما في المخفر ، فقد كان صوتك يزلزل الجدران وضربتك تقصم الصخر .. تفضل معي؟.

ـ ماذا تريد ؟.

ـ اريدك أنت والصرة .

تريث الشاويش بعد ان شعر بالقلق :

ـ ولماذا انا ؟!

تنهد مختار ثم رماه بنظرة طويلة وبطيئة :

ـ رفقة مشوار .

وهز البندقية في وجهه . فخاطب الشاويش زوجته :

ـ احضري الصرة عن الطاولة .

واكمل لمختار :

ـ لكنك ستندم .

ـ بعد ان يصل المال لمن ينتظره يهون كل شيء .

وعندما جاءت بالصرة تناولها الشاويش ومدها الى مختار الذي خطفها بلهفة واخلى له الباب فخرج امامه . وقبل ان يبتعدا ،استدار مختار وخاطب عفرة :

ـ يقال ان زوجة الشاويش،تكون بحكم الحالة الاجتماعية ،شاويشا على نساء المدينة بأسرها . ويقال ايضا ، ان اعصاب نساء العسكر بقوة اعصاب رجالهن . فاذا اردت زوجك حيا ، لا تصرخي .

راح الشاويش يدب بفوضوية كأنه يتدحرج .. فلا الافكار الزائفة، ولا الاعصاب الخائرة يمكن السيطرة عليها . ولاول مرة ، يسمع لخطواته وقعا غير منتظم منذ ان التحق بالخدمة وصار شرطيا .. فقد تعود فيما مضى ، ايام المجد والابهة ، ان يكون شديد الانضباط حتى في الاوقات الخارجة عن ساعات العمل ، فيقرع قدميه بانتظام ليصنع لحنا ، يظل يهوم في المخيلة طالما بقي يمشي . اليوم ، تنقلب الصورة ، فتنهار امانيه ، ويهدر شرفه ، فيشعر انه مسحوق . بقي صامتا يكظم الغيظ ، غارقا في جحيم الانهزام ، والبندقية في ظهره. اما مختار فقد بقي ينسل وراءه كالشبح يجرجر خطواته الواهنة ويفح باعياء . وعندما بلغا حدود المقبرة ، وانحدرا ، نفخ الشاويش، وسال :

ـ من أين ؟.

ـ كل الطرق تؤدي الينا ، خصوصا اذا كان القاصد شاويشا !.

ـ صاحب البيت اخبر به .. وانا ، لم اطا هذا الطريق من زمن بعيد ..

سخر مختار :

ـ اذن ، خطوة مباركة .. اين رجالك الذين جعلوا من المخيم ميدانا للطراد ؟! .

ـ تسخر ، بينما أنت في هذه الحال ، والدم يعفر وجهك ؟!.

ـ لو كنت مثلي، تتجمع هموم الدنيا فوق راسك ، فتغرق في الجوع والمذلة ، ويستغلك الناس ،وتقهرك السلطة ، ويهرب الله من وجهك، ويسرق الشاويش رزق اولادك ليطعم اولاده .. لفقدت الطعم الحقيقي للبكاء ، ولجفت الدموع في مقلتيك ، ولاصبح لا مفر امامك من الضحك . لماذا فعلت بي ذلك ؟.

ـ فعلت ماذا ؟

ـ لطشت الصرة !.

تردد الشاويش ، وهمهم بلا مبالاة :

ـ نسيت اننا نعيش في غابة واحدة ؟

ـ فاخذت دور الوحش الكاسر ؟!

ـ والا اصبحت ضحية !.. ورائي افواه وبطون لا تشبع ،والارض تدور ونحن عليها ، وكل لحظة تمر انما هي فريدة ولا تتكرر ..وهي لشدة وقعها تترك اثرا محفورا في الوجه ..

ـ صحيح ؟. اصغ الي اذن ، واحسب في المخيلة سنين طويلة من الجوع والغربة ، مضروبة بالشهور والايام والساعات والدقائق والثواني .. وانظر الى وجهي ؟.

ـ وارى في عينيك ظلي الذي يسبب لك الشقاء ؟!.

ـ آه .. اه !.

ـ أليس كذلك ؟

ـ دعني ، ولا تنهش ظهري .

ـ وتضرب شرطيا وتسحب السلاح على شاويش ؟

ـ بعد ان مزقني الشرطي باوامر رئيسه .

ـ ما الفرق ؟

ـ كالفرق بين ان يسرقني الشاويش ،وان استرد منه ما سرق .

ـ اقول ، يا كوكباوي ، ان الاوان قد فات وخسرت نفسك . لو انتظرت ، لانتهت القصة بطلوع الفجر.

ـ اعرف ، ياشاويش ، أنك لن تقطع راسي . اهنتني ، فاهنتك .

ـ اخذت بثارك ؟! .

ـ احيانا ، تسقط المصائب فلا نملك القدرة على تحملها .

ـ سيكون العريف « دهيم » في اثرك .

ـ لذلك اتيت بك لكي لا يجبرني على مخاطبته بالرصاص .

ـ ماذا تقصد ؟

ـ عندما يكون الشاويش في قبضة المطلوب فالعريف اجبن من ان يتصرف على هواه .

ـ وهل يختلف الامر ؟ .. اين ستلهب ؟.. لن تطير من الدنيا! .

ـ في الواقع ، لن اطير . لكن الامر يختلف عندما اقع في اخر الشوط لا في اوله ، تماما كالاختلاف بين ضرب العميان وضرب الفرسان .. من هنا !

وانعطفا الى اليمين ودخلا في زقاق معتم . وفيما كان لهاثهما يتردد ، شعر الكوكباوي بالطمانينة تقتحم عليه فوضى الافكار وتبدد بعض مخاوفه . فقد كان يخشى ان يداهمه العريف في منتصف الطريق فيشتبك معه وتطير الصرة قبل ان ينهي المشوار .اما وقد قطع هذه المسافة وانتهى الامر ، فليذهب العريف الى جهنم .

نقر على ظهر الشاويش ببطء ، وهمس :

ـ قف .

وتقدم ليواجهه . اخذ الصرة . اتكا على باب الصفيح . فرعه ونادى :

ـ عفيفة ؟

وعندما انشق الباب ، ذعرت عفيفة ، وتصاعد صوت الاولاد من الداخل . قال مختار للشاويش :

ـ ادخل !.

والقى الصرة في يد زوجته ، فتراكض الصغار وراحوا ينظرون باستغراب . حرك اصابعه مشيرا الى وجهه وقال :

ـ جئتك بالعرق المغمس بالدم . لا تندبي حظك . ليأكل الصغار من شرف ابيهم حتى يشبعوا ويبتسموا . هذا هو الشاويش دحيلان، الذي لم يجمد الدم في عروقه ، الا مختار الكوكباوي .

ثم صمت لهنيهة ، والتفت الى الشاويش :

ـ اظنك موقنا باني قادر على رد الصاع صاعين .. كم جلدة جلدتني ؟.

ذهل الشاويش ، وجحظت عيناه ، ورمى بصدره الى الوراء :

ـ !!!

ـ كم ؟

ـ !!!

ـ ولا كلمة ؟!

ـ !!!

ـ آه .. المضروب بالعصي ليس كالذي يعدها !.

ـ !!!

ثم نظر الى زوجته وتبادل معها الصمت الطويل حتى تجمعت الدمعة في عينيها .. تراجع الى الوراء ومد ذراعيه حتى كادتا تلامسان صدر الشاويش :

ـ عادت الصرة ..

ـ .. عادت

ـ وصفاري أحق ..

ـ .. احق

ـ وانتهى المشوار ..

ـ ... انتهى

ـ ويداي والبندقية لك ..

وخرجا جنبا الى جنب واختفيا في الظلام .. بينما بقيت عفيفة كابية على الباب ...

★ ★ ★

ازاح الشرطي الصرة واسقطها في الدرج . وما ان سقط مختار على الارض حتى هرع وامسك بذارع الشاويش وعاتبه :

ـ اخشى ان تكون قتلته !!

نفخ الشاويش بغيظ وتوقف :

ـ هذا الصنف بالف روح ..

ـ سنقع في ورطة !.

ـ لا تخف .. سيعود اليه وعيه .

ـ لننتظر الشكوى من صاحب النقود ؟.

ـ حينئذ لا مبرر للضرب !.

والقى بالكرباج على الطاولة وانزل كمي قميصه ثم ارتدى سترته ومسح العرق عن جبينه ، وقال :

ـ تأخرت على « عفرة » . ضعه في الداخل .

وانطلق الى الشارع تاركا « مختار » ممددا على الارض .. ينتفض مثل سمكة اخرجت من الماء .

صيادون في شارع ضيق

رواية بقلم

جبرا ابراهيم جبرا

« صيادون في شارع ضيق » رواية من نوع آخر . فهي « رواية افكار وشخصيات » بالدرجة الاولى ، كما قال عنها المستشرق الانكليزي دنيس جونسن ديفز . ولكن الاهمية في « صيادون » متأتية من تصوير الشخصيات ومن تقديم الافكار والمواقف . والشيء الذي يجعل « صيادون » عملا ادبيا بارعا هو قدرة الكاتب على تكديس جميع هذه الشخصيات والافكار والمواقف في بوتقة صغيرة وجعلها تتحرك في مختلف الاتجاهات ، رغم ان واحدا من هذه الشخصيات لايشبه الاخر شبها كاملا . اما كيف ينتقل الكاتب من فكرة الى اخرى من دون ما علاقة ظاهرة ، فذلك دليل اخر على براعته » .

صدر حديثا ـ منشورات دار الاداب

الدكتور عبدالواحد لؤلؤة